

## مدخل تأسيسي إلى منطق سيبويه التداولي في ضوء تحليلات إدريس مقبول

د/ عائشة برارات (\*)

مقدمة:

لم تكن البنية اللغوية عند سيبويه معزولةً عن السِّياق الذي أنتجت فيه، فلقد كانت له عنايةٌ كبيرةٌ بمبدأ القصدية، فكان ومن بين هذه المقاصد: العناية والاهتمام، التنبيه والإعلام، التأكيد... وغيرها، كما كان له اهتمام بنظرية الأفعال الكلامية، بتقسيمه الكلام إلى خبر وإنشاء، فضلاً عن تطبيقات مبدأ التعاون... وغيرها من القضايا التداولية. من هنا نصوص الإشكالية الآتية: هل يمكن أن نقرأ كتاب سيبويه قراءةً تداوليةً؟ وما أهمّ المفاهيم والأسس التي وظّفها سيبويه في نحوه مما جعل منه نحواً تداولياً بامتياز؟ الكلمات المفتاحية: التداولية، الاستعمال، السِّياق، النحو، القصدية.

(\*) جامعة غرداية / الجزائر.

## ١. في المنظور التداوئي السيبويهي:

بمعنى الإنشاء والإنشاء بمعنى الخبر، ويتم تنزيل المخاطب العالم بالحكم منزلة الذي يجهله، يقول سيبويه: «وقد تقول: (هو عبدُ الله، وأنا عبدُ الله فإخراً أو مُوعداً)؛ أي: عرّفني بما كنتَ تعرف وبما كانَ بلغك عني، ثم يفسر الحال التي كانَ يعلمه عليها أو تبلّغه فيقول: (أنا عبدُ الله كريماً جواداً، وهو عبدُ الله شجاعاً بطلاً)، وتقول: (إنني عبيدُ الله مصغراً نفسه لربه)، ثم تفسر حال العبيد، فتقول: (أكلًا كما تأكلُ العبيد)، وإذا ذكرت شيئاً من هذه الأسماء التي هي علامة للمضمّر فإنه محال أن يظهر بعدها الاسم إذا كنت تُخبر عن عمل أو صفة غير عمل، ولا تريد أن تُعرّفه بأنّه زيدٌ أو عمرو، وكذلك إذا لم تُوعد ولم تُفخر أو تُصغّر نفسك، لأنك في هذه الأحوال تعرف ما ترى أنّه قد جهل أو تُنزل المخاطب منزلة من يُجهل فخرًا أو تهددًا أو وعيدًا، فصار هذا كتعريفك إياه برسمه»<sup>(٣)</sup>.

ونجده قد أبدع حين عَقَد مقارنة بسيطة بين المثالين: (أنا عبدُ الله شجاعاً بطلاً، وأنا عبدُ الله مُنطَلِقاً)؛ لتمييز ما يُحالُ منه وما يحسُن بتبيين أن اللجوءَ إلى الإضمار مرتبطٌ بعلم المخاطب ومعرفته بالمقصود، ولا يجوزُ إظهار الاسم بعد الإضمار إلا بتنزيل المخاطب العالم منزلة الجاهل فتصحُّ الجملة، وهذا ما يؤكده سيبويه «وإنما يُضمّر إذا علم أنك عرفت من تعني، إلا أن رجلاً لو كانَ حلفَ حائطٍ أو في موضعٍ تجهلُ فيه، فقلت من أنت؟ فقال: (أنا عبدُ الله مُنطَلِقاً في حاجتك

أكد إدريس مقبول المنظور التداوئي عند سيبويه، بقوله: «إنّ نحو سيبويه لمن يتأمله ويغوص فيه يجده نحواً وظيفياً وتداولياً بامتياز وذلك أنّه نسق منتظم للسان العربيّ المبني على رعاية الأركان الخارج لسانية في بناء اللغة العربية وتوجيه الدلالات التواصليّة من قبيل المتكلم والمخاطب، والسياق التّخاطبيّ، ومقاصد المتخاطبين واستلزمات الحوار، وهو ما اهتم به أكثر من اتجاه في المدرسة الوظيفيّة المعاصرة»<sup>(١)</sup>. وقد ذهب إدريس مقبول بعيداً في تفسير الجانب التداوئي في نظريّة سيبويه؛ إذ نجده قد قسّم الأسس التداوليّة في (كتاب) سيبويه على قسمين: القسم الأول: الأسس البنائية الواصفة تضم: اللحن التداوئي، والإعراب التداوئي، والسياق، والقسم الآخر: الأسس البنائية التعليمية الشارحة يندرج فيها: المتكلم والمخاطب، الإسناد والمهمّة التكميليّة، والتوجيه بالقصد.

على هذا الأساس كان من الطبيعي أن يتطرق سيبويه في تحليلاته إلى كثيرٍ من الظواهر التعبيريّة التي رآها تخرج عن ظاهر الاستعمال، فأخذ يُجريها على الاتساع تارة، أو على سُنن العربيّة في كلامها تارة أخرى<sup>(٢)</sup>، فيجيء الخبر

(١) إدريس مقبول، الأفق التداوئي نظريّة المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن ط (٢٠١١)، ص ٧٧.

(٢) يُنظر: أحمد سعد محمد، الأصول البلاغيّة في كتاب سيبويه وأثرها في الدرس البلاغيّ، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر ط (٢٠٠٩)، ص ١٨٠.

(٣) سيبويه، الكتاب، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط (٢٠٠٦)، ج ٢، ص ٨٠.

كَانَ حَسَنًا»<sup>(٤)</sup>، والأمثلة كثيرة على هذا المنوال.

## ٢. البعد المقاصدي والسياقي في تحليلات

### سيبويه:

لم يحلّل سيبويه الكلام إلا في إطار الموقف الذي جرى فيه، وقد كان الموقف أو السياق عنده هو المظهر العام في عملية الاتصال، ومن ثمّ كان الموقف عنصرًا نشطًا فيها<sup>(٥)</sup>، وهذا ما يؤكد إدريس مقبول؛ فسيبويه كان يفرع منذ ذلك العهد المبكر من تاريخ النظر النحوي إلى السياق والملابسات الخارجية وعناصر المقام، ويتسع في تحليل التراكيب إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها، وما يلبس هذا الاستعمال من حال المخاطب، وحال المتكلم، وموضوع الكلام<sup>(٦)</sup>.

إذن سيبويه في كتابه لا يحلّل التراكيب إلا بضمها إلى سياقها، وهو بذلك يبيّن أوجه الجواز والامتناع أو الاستقامة والإحالة، فالكلام لا ينظر إليه إلا لحظة إنجازه، فهو يحاول حصر الاحتمالات الممكنة للتلفظ بناءً على استعمال العرب وسمت نطقها، فنجده يحكم على التركيب بأنه محال، وتارة بأنه مستقيم، وثالثة بأنه محال ومستقيم في نفس الوقت من منطلق مراعاة السياق، يقول: «تقول: (مررت برجل حمار)، فهو على وجه محال، وعلى وجه حسن فأما المحال فأن تعني أنّ الرجل حمار،

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨١.

(٥) محمد حسن عبد العزيز، كتاب سيبويه مادته

ومنهجه، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط ١ (٢٠١١). ص ٢٣٥.

(٦) إدريس مقبول، الأسس والإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن ط ١ (٢٠٠٦) ص ٢٧٦.

وأما الذي يحسن فهو أن تقول: مررت برجل ثم تبدل الحمار مكان الرجل، فتقول: حمار، إما أن تكون غلطت أو نسيت فاستدركت، وإما أن يبدو لك أن تضرب عن مرورك بالرجل وتجعل مكانه مرورك بالحمار بعد ما كنت أردت غير ذلك»<sup>(٧)</sup> فوجه الإحالة أن تجعل الرجل هو نفسه الحمار (هما شيء واحد)، وهذا لا يقبله منطق الواقع، وتزول هذه الإحالة بمجرد التأويل على سبيل الاتساع، فيعني أنّه كالحمار غباءً وبلادة.

ولا نعدّم في التراث اللغوي العربي القديم عامّة (وكتاب) سيبويه خاصّة اهتمامًا ملحوظًا بمراعاة القصد وأثر ذلك في بناء التراكيب بالحذف أو الذكر، وبالتقديم أو التأخير، وبالزيادة أو النقصان، فالتكلم يضع كلامه على قصد معين يتوخى إيصاله إلى الطرف الآخر تعبيرًا عن أغراضه، فعندما «أتكلم فأنا أحاول إيصال بعض الأشياء إلى المخاطب بدعوتيه إلى التعرف على مقصدي من توصيل تلك الأشياء بالذات وأتوصل على الأثر المنتظر عندما أعوده إلى معرفة غرضي من تقديم هذا الأثر له، وما إن يتعرف على ما في غرضي الحصول عليه حتى تتحقّق النتيجة عموماً»<sup>(٨)</sup>، من هنا يصبح قصد المتكلم ركيزة أساسية في إنتاج التراكيب اللغوية التي هي بدورها أداة فعّالة للسامع يتكئ عليها في معرفة تلك المقاصد والوصول إليها ببراعة ودون تشويش.

(٧) سيبويه، الكتاب، ج ١، ص ٤٣٩.

(٨) فيليب بلا نشيه، التداولية من أوستين إلى فوغلان، تر صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا ط ١ (٢٠٠٧) ص ١٣٩.

ومن اهتمام سيبويه بالسِّيَاق توظيفُ دلالة الحواس من شَمٍّ، وذوقٍ،... وغيرها؛ فنراه قد قَسَمَ السِّيَاقَ إلى قسمين: ما يجري من الذكر (السِّيَاق المقامي)، وما يُرى من الحال (السِّيَاق اللغوي)، وما يُرى من الحال (السِّيَاق المقامي)، إذ يقول: «وإنما حَدَفُوا الفِعْلَ في هذه الأشياء... لكثرتها في كلامهم واستغناءً بما يرون من الحال وبما جرى من الذكر»<sup>(٩)</sup>.

وبهذا تتبين خصوصية النَّظَرِ النَّحْوِيِّ السَّبِيحِيِّ القائم على اعتبار السِّيَاقِ مُكَوَّنًا أساسًا في بناء النَّحْوِ<sup>(١٠)</sup>؛ فيتداخلُ قصد المتكلم والسِّيَاق في تشكيل المعنى الدلالي للتركيب اللغوي، وهذا التَّدَاخُلُ والتفاعل بين المُكَوَّنَاتِ اللِّسَانِيَّةِ لِلخِطَابِ وَمُكَوَّنَاتِ التَّخَاطُبِ يجعلُ المُتَكَلِّمَ لا يُضْطَرُّ إلى التَّعْبِيرِ لِسَانِيًّا إلا عن العناصر التي لا يَحْتَوِيهَا المقامُ، فكُلَّمَا أَعْنَى المقامُ في الدلالة على تلك المعلومات، وَجَدَ المُتَكَلِّمُ نفسه في غنى عن التَّعْبِيرِ عنها لغويًّا، وهذا ينطبق بصورة خاصة في الحذف وبمفهوم المخالفة كَلَّمَا خَفِيَ المقامُ أو خِيفَ حدوثُ اللَّبْسِ، أو انتفتت القرائن الدالَّة على المعنى، يجبُ على المُتَكَلِّمِ أن يلتزم الاتساع والتوسع هو مظهر من مظاهر العناية بالسِّيَاقِ لاسيَّما أَنَّهُ يُعْطَى المُتَكَلِّمَ حُرِيَّةً في التصرُّفِ في النسق اللغوي<sup>(١١)</sup>.

ولا يَمَلُّ سَبِيحِيَّةً في كلِّ مرة من العودة إلى مَرَجِعِيَّةِ الاستعمال المتمثلة في كلام العَرَبِ وكَيْفِيَّةِ

(٩) سيبويه، الكتاب، ج ١، ص ٢٧٥.

(١٠) إدريس مقبول، الأسس التداوليَّة والإبستمولوجيَّة

للنظر النَّحْوِيِّ عند سيبويه، ص ٣٠٤.

(١١) المرجعُ نَفْسُهُ، ص ٣٣٨.

نطقها وتنبَّح سَمْتها وإشارة إلى ضرورة أن نُجْرِيَ الكلامَ كما أجزته، ف«السِّيَاق المقامي هو الذي يحدِّد البواعثَ الاجتماعيَّة المؤطَّرة للاستعمال الحواري، هذا السِّيَاق يُبَيِّن من جهة ثانية تفسيراتٍ للمضامين الحواريَّة الغامضة التي ما كانَ يمكن تفسيرها لولا الرجوع إلى هذا السِّيَاق»<sup>(١٢)</sup>، فالتركيُّب لا تخرج عن واقع الاستعمال؛ أي: رصد اللُّغَةِ المنطوقة، من هذا يتحدَّد إدراك المعنى باكتمال الوصل بين هذه العلاقات، علاقة إنشاء بين النَّصِّ والمُتَكَلِّمِ، وعلاقة فهم بين النَّصِّ والمُخَاطَبِ، وعلاقة سياق مناسب علاقات تجاذب قوية فيما بينها تُسهم بدور فعال في تفسير النص تفسيراً مقبولاً<sup>(١٣)</sup>، ومن ثمَّ فهم وظيفة اللُّغَةِ من حيث هي آلة يجب أن يُنظر إليها في إطار عوامل رئيسية ثلاثة ينتظمها الموقف الكلامي، وهي: المُتَكَلِّمِ، والمستمع، والأشياء التي هي موضع الكلام<sup>(١٤)</sup>.

إنَّ النَّحْوِ السَّبِيحِيَّةَ قائمٌ على هذه العناصر، وأيُّ إهمالٍ لها من شأنه أن يُفسد التَّوَاصُلَ، وهو ما عبَّر عنه سَبِيحِيَّةً بـ (التَّهَاون بالخلف)، فلا يتم التمييز بين مجرَّد الإخبار الأولي، والإخبار الثاني

(١٢) محمد نظيف، التواصل وخصائص التفاعل الحواري دراسة تطبيقية في اللسانيات التداوليَّة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط (٢٠١٠)، ص ٤١.

(١٣) يُنظَر: سعيد حسن بحيري، عناصر النَّظَرِيَّة النَّحْوِيَّة في كتاب سيبويه محاولة لإعادة التشكيل في ضوء الاتجاه المعجمي الوظيفي، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط ١ (١٩٨٩)، ص ١٨٠.

(١٤) المرجعُ نَفْسُهُ، ص ١٨١.

الذي يُراعي مُجَرَيَاتِ المعنى، ومن ثمّ بناء التّركيب حسب حال المُخاطَب ودرجة معرفته التي توجب على المُتكلّم التصريح والتوضيح أو الإيجاز والاختصار، فالإعراب عند سيبويّه لا ينتظم مستوى الشكل فقط بل يرتقي ليصبح إعراباً تداولياً بالدرجة الأولى، ففي العبارتين: (أنا عبدُ الله مُنطَلِقاً هو زيد مُنطَلِقاً) تتمظهر العلاقات في الشكل الآتي: (١٥)

علاقات دلاليّة = علاقات تركيبية ≠ علاقات إخبارية  
وبين جهل المُخاطَب وعلمه يتّصف التّركيب بكونه مُحالاً أو حَسناً، ويصبح الإخبار الواحد (الانطلاق) إخبارين عن المُبتدأ وعن الحال، فإذا توفّرت مرجعية سياقية (خلف الحائِطِ مثلاً)، وقصد معيّن (فخر، تهديد،... إلخ) تكون القاعدة قاعدة نحويّة تداوليّة، ويُعدُّ السّيّاق جزءاً من اللّغة، صحيح أنّ الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ لكنّ الألفاظ ليست هي الإمكانية الوحيدة والكافية للوصول إلى المعنى المقصود إيصاله، بل لا بدّ من المظاهر السّيّاقية الأخرى وهي ما يُعرف بالمستوى التّأويلي، فيتمّ الانتقال من الدلالة إلى التّداول بطريقتي قد تخفى على النّحويّين ومحترفي صناعة الإعراب أو أصحاب اللّغة أنفسهم، تنطوي على مزايا بإعمال الفكر والذوق كما يقول الجرجاني (١٦).

ويظهر المستوى التّداوليّ للإعراب في أبواب كثيرة في كتاب سيبويّه، فقد يكونُ للتعظيم، والمدح، أو

الفخر، والترخيم، أو الذم والشتم... وغيرها، وهذا يُظهر أنّ لسيبويّه إحساساً دقيقاً باللّغة وقوتها التّداوليّة، إذ لا تكاد تمرّ عليه لفظة أو كلامٌ من فم عربيّ إلا وينطلق لتصوّر سياقه ومقامه حتى يتسنى له توجيهه على وفق ما يقتضيه إنجازه في موضعه ومحلّه (١٧)، فالتعظيم والمدح... ما هي إلا مقاصد يريد المُتكلّم إيصالها للمُخاطَب، فتتخذُ شكل علامات على الإعراب بتقدير مَحذوف استغني عنه يُذكر للتمثيل ولا يُتكلّم به، فيُميز بين التّركيب والتّركيب الأول: إخبار، والثاني: إخبار مَخصوص، فلا يكونُ الإعراب فارقاً بين المعاني المتكافئة بل السّيّاق وقصد المُتكلّم يصبحان ذلك الفارق، وهو المستوى التّداوليّ الذي نَعنيه، والإعراب عند سيبويّه يكاد لا يخلو من أسبابٍ وصلاتٍ مع المستوى التّداوليّ (١٨)، يقول سيبويّه: «ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [النساء ١٦٢] فلو كان كَلِّه رفعاً لكان جيّداً»، و(المقيمين) منصوبة على المدح والتعظيم (١٩). إنّ سيبويّه يحكم على الرفع (المؤتون الراسخون...) بكونه جيّداً؛ يعني أنّ التّركيب مقبولٌ نحويّاً ودلاليّاً إلا أنّ (المقيمين) منصوبة، وهذا ليس خطأ بل على التعظيم؛ لأنّ المقام هو مقام ثناء على المؤمنين.

إنّ هذا التفسير هو ممارسة تداوليّة تنبني على

(١٧) يُنظر: إدريس مقبول، الأسس الإستمولوجية والتّداوليّة للنظر النّحويّ عند سيبويّه، ص ٢٩٧.

(١٨) إدريس مقبول، البعد التّداوليّ عند سيبويّه، ص ٢٥٠.

(١٩) سيبويّه، الكتاب، ج ٢، ص ٦٣.

(١٥) يُنظر: المرجع نفسه، ص ٩٥.

(١٦) إدريس مقبول، البعد التّداوليّ عند سيبويّه، عالم الفكر، دمشق، سوريا، مج ٣٣، العدد ١، (سبتمبر ٢٠٠٤)، ص ٢٥٥.

السِّيَاقَاتِ الْمُخْتَلِفَةَ كَمَا أَشَارَ صَاحِبُ مَعَانِي النَّحْوِ<sup>(٢٠)</sup>، فَسَيَبَوِّيه بِقَوْلِهِ التَّعْظِيمَ انْتَقَلَ إِلَى الْغَرَضِ الْمُبَاشِرِ أَوْ الْأَقْرَبِ، وَهَذِهِ عَادَتُهُ، فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ تَفْسِيرَاتٌ يَأْخُذُ بِالْأَقْرَبِ إِلَى رُوحِ الْمَعْنَى، وَلَا يَتَنَاوَى مَعَ مَقْتَضِيَّاتِ الْوَضْعِ وَالْعَمَلِ. وَقَدْ يَكُونُ الْقَصْدُ إِلَى الشَّتْمِ وَالذَّمِّ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

يَأْوِي إِلَى نِسْوَةٍ عَطَّلِ

وَشَعْنًا مَرَاضِيْعَ مِثْلَ الْعَسَالِي

كَأَنَّهُ حَيْثُ قَالَ: (إِلَى نِسْوَةٍ عَطَّلِ) صَرَنَ عِنْدَهُ مَمَّنْ عَلَّمَ أَنَّهُنَّ شَعَثٌ، وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ ذَلِكَ تَشْنِيْعًا لِهِنَّ وَتَشْوِيْهًا، قَالَ الْخَلِيلُ: كَأَنَّهُ قَالَ: وَأَذْكَرَهُنَّ شُعْنًا<sup>(٢١)</sup>، «فَسَيَبَوِّيه لَا يَسْتَنْدُ إِلَى إِعْرَابٍ جَافٍ مَعْزُولٍ عَنِ مَسْتَوَى التَّدَاوُلِ بَلْ يَسْتَنْدُ بِالْأَسَاسِ إِلَى اسْتِنْبَاطِ الدَّلَالَةِ مِنَ الْمَقَامِ وَفَهْمِ الْمُخَاطَبِينَ، وَاسْتِحْضَارِ الشَّرْطِ التَّدَاوُلِيَّةِ لِإِنْتِاجِ تَأْوِيلِ الْخِطَابِ، فَيَنْتَصِبُ الْاسْمُ بِفِعْلِ مَحْذُوفٍ لَا يَسْتَعْمَلُ إِظْهَارَهُ بَلْ يَتَوَسَّلُ بِهِ فَقَطْ لِيَنْقَدِحَ مَا أَنْبَهُمْ مِنْ مَعَانِي الْمَحْذُوفِ وَيَسْتَقِيمُ مَنْطِقُ الْإِعْرَابِ وَالْفَهْمِ»<sup>(٢٢)</sup>.

إِنَّ الْقَصْدَ نَحْوَ الشَّتْمِ وَالذَّمِّ، أَوْ التَّعْظِيمِ هُوَ التَّفْسِيرُ الَّذِي ارْتِضَاهُ سَيَبَوِّيه لِبَعْضِ التَّرَاكِيْبِ اللَّغَوِيَّةِ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ مَعْيَارًا لِتَمْيِيزِ التَّرَاكِيْبِ

مِنَ النَّاحِيَتَيْنِ النَّحْوِيَّةِ وَالِدَّلَالِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ الْبَحْثَ عَنِ الْمَقَاصِدِ الْكَامِنَةِ وَاللَّجْوَةِ إِلَيْهَا مُحَدِّدٌ أَسَاسِيٌّ لِقِيَمَةِ التَّرْكِيبِ اسْتِعْمَالًا لَا قَرِينَةً مُسَاعِدَةً فَقَطْ، «فَلَا فِكَارَ مِنْ أَنَّ الْقَصْدَ هُوَ الْمَحْرَكُ الْأَوَّلُ لِلخِطَابِ اللَّسَانِيِّ، فَلَهُ الْأَثَرُ الْبَالِغُ فِي تَفْسِيرِ مَعَانِي الْوَحَدَاتِ اللَّغَوِيَّةِ، حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ خِصَائِصِ عِنَاصِرِ الْوَحَدَاتِ الْكَلَامِيَّةِ إِنْ جَزَاءً مِنَ الْفَرْقِ بَيْنِ اللَّغَةِ وَالْأَنْوَاعِ الْآخَرَى مِنَ السَّلُوكِ الْإِتِّصَالِيِّ مُسْتَمِدًّا مِنَ الْقَصْدِ»<sup>(٢٣)</sup>.

وَهَكَذَا نَجِدُ سَيَبَوِّيه يَعْزِلُ بِالْقَصْدِ تَارَةً لِلخُرُوجِ عَلَى مُقْتَضَى الظَّاهِرِ؛ أَيِ مِنَ الْخَبَرِ الْمَجْرَدِ إِلَى التَّوْبِيْحِ (دَرَجَاتِ الْخَبَرِ) وَتَارَةً أُخْرَى يَكُونُ هُنَاكَ قَصْدٌ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ، كَأَنِّي بِهِ يَرِيدُ التَّأَكِيدَ عَلَى «أَنَّ الْوَحَدَاتِ الْكَلَامِيَّةَ لِلغَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لَيْسَتْ مَجْرَدُ سَلْسَلَةٍ أَوْ خِيُوطًا مِنْ صِيغِ الْكَلِمَاتِ، فَهُنَاكَ مَكُونٌ لَا كَلَامِيٍّ يَفْرِضُ دَائِمًا وَبِالضَّرُورَةِ فَوْقَ الْمَكُونِ الْكَلَامِيِّ فِي كُلِّ وَحْدَةٍ كَلَامِيَّةٍ مُحْكِيَّةٍ»<sup>(٢٤)</sup>، تَأَكِيدًا لِهَذَا نَجِدُ إِدْرِيسَ مَقْبُولَ قَدْ مَثَّلَ لَجْمَلَةً مِنَ الْمَقَامَاتِ وَالْمَقَاصِدِ مُمَيِّزًا بَيْنَهُمَا مِنَ الْبَسَاطَةِ وَالتَّرْكِيبِ<sup>(٢٥)</sup>، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّا لَا نَعْرِفُ شَيْئًا وَاضِحًا لِتَمْيِيزِ بَيْنَهُمَا إِلَّا مِنْ حَيْثُ كَوْنُ الْأَوَّلَى تَشْتَمِلُ عَلَى غَرَضٍ وَاحِدٍ، وَالثَّانِيَّةُ عَلَى غَرَضَيْنِ (قَصْدَيْنِ)،

(٢٣) جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، تر عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط (١٩٨٧)، ص ١٥ / ١٦.

(٢٤) المرجع نفسه، ص ٧٢.

(٢٥) يُنظَرُ: إِدْرِيسُ مَقْبُولُ، الْأَسْسُ الْإِسْتِمُولُوجِيَّةُ وَالتَّدَاوُلِيَّةُ لِلنَّظَرِ النَّحْوِيِّ عِنْدَ سَيَبَوِّيه، ص ٢٠٣-٣٠٣-٩١٣.

(٢٠) فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، شركة العاتك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط ٢ (٢٠٠٣)، ج ٢ ص ١٠١.

(٢١) سيبويه، الكتاب، ج ٢، ص ٦٦.

(٢٢) إِدْرِيسُ مَقْبُولُ، الْأَسْسُ الْإِسْتِمُولُوجِيَّةُ وَالتَّدَاوُلِيَّةُ لِلنَّظَرِ النَّحْوِيِّ عِنْدَ سَيَبَوِّيه، ص ٢٩١-٢٩٤.

ومع ذلك فالجدولُ الذي وضعه في غاية الأهمية، وإن كان يفصلُ بين الإعرابِ التداوُلِيِّ واللسانيِّ وهو أمرٌ غير مقبول؛ لأنَّ الإعرابِ التداوُلِيِّ يقوم على ركيزتين: القصد والسِّيَاق.

إنَّ الجدول الذي وضعه إدريس مقبول تبييناً لكلِّ من القصد والسِّيَاق في تشكيل المعنى الدلاليِّ للعبارة اللغويَّة، فتتعدَّدُ هذه المقامات في تراكيب مُتشابهة تماماً أو مُتطابقة من التعريف والتعرُّف والاسترشاد إلى الوعيد والفخر والإنكار... وغيرها، فضلاً عن حالات أحرَّ للسِّيَاقِ المقاميِّ يعرضها في صفحات موالية من كتابه الأسس التداوُلِيَّة والابستمولوجية، كلاهما يُوحى بصعوبة الفصل والتداخُل بين المقام (السِّيَاق) والقصد، فلا يتَّضح المعنى إلا بمعرفتهما، وبهذا يتأكَّد ما ذهب إليه طه عبد الرحمن من أنَّ «القول الطَّبِيعِيَّ مجرِّداً عن مقامه تصوير محامله كثيرة، ولا يتعيَّن واحد منها إلا بتعيين المقام حتى أنه يصحَّ الادِّعاء بأنَّ الأصلَ في القول الطَّبِيعِيَّ أن تتعدَّد معانيه إلى أن يثبت بالدليل خلافُ ذلك، وإذا كان الأمر كذلك فقد وجبَ أن تكون صورته الممكنة متعددة، وأن لا ينحصر تقويمها ضمن قيمة واحدة»<sup>(٢٦)</sup>، وذلك عن طريق مبدأ الاقتصاد (الكم اللفظي)، ومبدأ الصورة الأدنى (قدر الحاجة الاستدلالية)؛ بمعنى أنَّ القصد والسِّيَاق يدخلان في بناء التَّركيبِ أوَّلاً، وفي تفسير المعنى ثانياً، فهما أداتان هامتان لفهم المعاني الأولى، وكذا المعاني المستلزمة، وهذا ما

سنتناوله عند الحديث عن مبدأ التَّعاون. وفي سياق آخر يستدلُّ بقوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء ٣]، فإنما يجيء على البديل، وكأنه قال: انطلقوا، ف قيل له: من؟ قال بنو فلان<sup>(٢٧)</sup>، فسيبويه حين بنى تفسيره على البدلية كان قائماً على افتراض سؤالٍ من السامع، وأمثلة هذا كثيرة في الكتاب.

هذه الافتراضات يستدعيها التَّركيبُ في حدِّ ذاته، وهي تُشبه شَبهاً كبيراً الأقوال المضمرة والافتراضات المسبقة التي تُساير الفعل الكلاميِّ في التداوُلِيَّة، فالتَّركيبُ جاء على لغة «أكلوني البراغيث»، وهي على الرغم من كونها لغة مستهجنة ومستقبحة ومع ورودها في القرآن الكريم فالسِّيَاق والقصد هو الذي يحدِّدان الدلالة ويوجَّهان التَّركيبَ نحو وظيفة نحوية مُعينة؛ معنى ذلك أنَّ «التَّركيب تخبئ في خصائصه وأحواله إشارات ودلالات مختلفة، وأنَّ السِّيَاق هو الذي يستخرج من هذه الخصائص مُقتضياتَه، وكأنَّ التَّركيب النفيس أشبهه بقطعة من معدن نفيس تعطي ألواناً متكاثرة كلِّما أدرتها إدارة جديدة، والسِّيَاق هو القوة التي تحرَّك هذه القطعة لتُشيع من ألوانه ما يُراد إشعاعه»<sup>(٢٨)</sup>.

ويحيلنا إدريس مقبول إلى قضية أخرى لها علاقة لصيقة بالسِّيَاق وقصد المتكلم، وهي قضية اللحن التداوُلِيِّ؛ وهو اللحن الناشئ عن مخالفة الاعتقاد

(٢٧) المصدرُ نفسه، ج ٢، ص ٤١.

(٢٨) كادة ليل، المكون التداوُلِيُّ في النظريَّة اللسانية العربية ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجاً، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة، الجزائر، ص ٢٨٥.

(٢٦) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط١ (١٩٩٨)، ص ٤٥.

قواعد مُشرطة تطبيقها سياقات معينة، ونفترض  
أيضاً أنها بذلك لن تنتج كلاماً حاملاً لمعنى مُطلق  
أو مُجرد، بل أنه مُعين يريد المُتكلم أن يعنيه من  
جهة، وأن يعبر عن موقف مُحدّد في إطار سياق  
مُحدّد»<sup>(٣٣)</sup>.

هذه الفرضيات أُثبتت صحتها إلى حدّ بعيد  
استدلالاً بالنصوص المتواترة المتنوعة في مستوياتها  
(شعرًا ونثرًا) مدعومة باستعمال العرب  
الفصحاء، فـ«نحو سيبويه الموصوف بأنه هو  
النحو المهتم بالدلالة والعناية بالجانب الاجتماعي  
المتمثل بربط التركيب النحوي بالعالم الخارجي  
بملاحظة تأثير المواقف في دلالات التركيب لا نحوًا  
تجريديًا نظرًا كان من ثماره فصل علم المعاني  
عن النحو»<sup>(٣٤)</sup>، هو تأكيدٌ لالتحام الأجزاء بعضها  
ببعض داخليًا وخارجيًا لتأدية المعنى المطلوب.

ومن ثم فإن سيبويه لا يكتفي بالصحة اللغوية  
المطلقة، بل هناك ضربٌ آخر من الصحة أساسه  
تمييز المقاصد والسياقات المختلفة، «وكان الأداء  
اللغوي يستمد طاقته التعبيرية من معطيات  
السياق الخارجي، فيتغير البناء اللغوي كلما تغير  
الموقف الاجتماعي والطبيعة الخارجية للسياق،  
فإذا ما زادت وتضاعفت شدة التغير في المقام  
تضاعفت نسبة التحويلات اللغوية والتركيبية  
في السياق، ويصحّ العكس كذلك، ذلك أنه كان  
مدرغًا للقوة التواصليّة للخطاب والمقصد البلاغي

(٣٣) المرجع نفسه، ص ٣٢٥.

(٣٤) يُنظر: مازن عبد الرسول الزيدي، نحو سيبويه في  
كتب النحاة دراسة تحقيق وتقويم، أطروحة دكتوراه،  
الجامعة المستنصرية (٢٠٠٦)، ص ٣٣.

للواقع، فقد جرت العادة أن يُنسب اللحن للغة؛  
بمعنى خرق جانبها النحوي أو الصرفي<sup>(٣٩)</sup>، بل  
ربطه بالمستقيم الكذب، يقول: «إن الكلام المستقيم  
الكذب تركيبٌ انتظمت عناصره وأجزاؤه وفق  
نسق لغوي وقاعدي مقبول يُحافظ فيه على الرتب  
والمحلات وأثار الإعراب، غير أن اللحن يأتيه من  
جهة دلالة ملفوظه في علاقته بالاعتقاد والواقع،  
إذ هو إما صادق أو كاذب»<sup>(٣٠)</sup>؛ والمستقيم الكذب  
قد مثّل له سيبويه بقوله: (حملت الجبل، وشربت  
ماء البحر)<sup>(٣١)</sup>.

إن وصف سيبويه اللغة جعله لا يغفل عن  
أي وضع من أوضاعها مهما تنهى في الصغر أو  
الجزئية، وبغض النظر عن نسبة وروده (قلة أو  
كثرة) ضمن ظواهر اللسان العربي<sup>(٣٢)</sup>، فالتقديم  
والتأخير، والإضمار والإظهار، وخروج الأساليب  
على غير مقتضى الظاهر كل ذلك يُحيل إلى مدى  
مراعاة السياق العام والقصد كآليتين أساسيتين  
في إنتاج وتأويل الملفوظات، فـ«نحو سيبويه  
إذن غير مستقل بنفسه، وقوانين اللغة المنتجة  
للملفوظات مدعوة، لكي تكتسب الصحة الدلالية  
والتداولية على مستوى الكلام، أن ترتبط بعناصر  
خارجية عنها، أي هي عبارة عن قواعد سياقية، أي

(٢٩) إدريس مقبول، الأسس الإستيمولوجية والتداولية  
للنظر النحوي عند سيبويه، ص ٢٧٩.

(٣٠) المرجع نفسه، ص ٢٨١.

(٣١) يُنظر: سيبويه، الكتاب، ج ١، ص ٢٦.

(٣٢) إدريس مقبول، الأسس الإستيمولوجية والتداولية  
للنظر النحوي عند سيبويه، ص ٣٠٠/٣٠١.

من ورائها»<sup>(٣٥)</sup>، من أمثلة ذلك تحليله (الألف واللام)، يقول سيبويه: «أما الألف واللام فنحو: (الرجل، والفرس، والعبيد) وما أشبه ذلك، وإنما صار معرفةً لأنك أردت بالألف واللام الشيء بعينه دون سائر أمته لأنك إذا قلت: (مررت برجل) فإنك إنما زعمت أنك مررت بواحد ممن يقع عليه هذا الاسم، لا تريد رجلاً بعينه يعرفه المخاطب، وإذا أدخلت الألف واللام (مررت بالرجل) فإنما تذكره رجلاً قد عرفه بعينه الذي كان عهده ما تذكر من أمره»<sup>(٣٦)</sup>، فيمكن تصوّر العلاقة بين الجملتين من حيث الدلالة على المعنى، وقصد المتكلم انطلاقاً من مراعاة حال المخاطب مع ضرورة الملاءمة.

إنّ الفعل الكلامي لا يصل إلى دلاليته الإنجازية بمجرد النطق والتوليد، بل بتوفّر شروطه التأثيرية المقصودة من لدن المتكلم في موقف معيّن وبمقام محدّد، وهو ما حرص عليه سيبويه، فمقام التعريف يباين مقام التنكير، ومن ثم اختلاف الدلالة على اعتبار حال المخاطب<sup>(٣٧)</sup>، وكذلك في مقصدية الدعاء التي عبّر عنها بمجموعة من العبارات يمتزج فيها الخبر (زيداً قطع الله يده)، والإنشاء (اللهم زيدا فاغفر ذنبه) مع مراعاة الاستعمال لتأدية المعنى، «فمنذ ذلك العهد

(٣٥) يُنظر: هيثم محمد مصطفى، القصديّة الإنجازية في مضمون الخطاب النحويّ في كتاب سيبويه، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، مج ١١، العدد ٣، ص ٢٢٩.

(٣٦) سيبويه، الكتاب، ج ٢، ص ٥.

(٣٧) هيثم محمد مصطفى، القصديّة الإنجازية في مضمون الخطاب النحويّ في كتاب سيبويه، ص ٢٣٤.

المبكر يفزع إلى الملابس الخارجية وعناصر المقام ليرد ما يعرض في بناء المادة اللغوية من ظواهر مخالفة إلى أصول النظام النحوي طلباً للطراد المحكم وهو يوافق فيما صدر عنه في الكتاب ملاحظات كثيرة مما تنبني عليه الوظيفية ومناهج التوسيع أو اللغويات الخارجية»<sup>(٣٨)</sup>، فبدء الكلام بما هو معروف عند المخاطب، وعدم جواز كونه منكوراً لديه لئلا سيؤدي إلى الإبهام، لأنه لا يستقيم الإخبار عن مجهول، وتأكيد هذه القاعدة (قاعدة الأعراف) واتصالها بإمكانات التقديم والتأخير، فنجد تارة يُضمر أفعالاً، وتارة أخرى بالقطع (الفصل والوصل)، كل ذلك يعني الجمع بين التفسير اللغوي وملاحظة السياق من منطلق محاولة استيعاب الظاهرة اللغوية في أكبر مستوياتها، «لذا يتوجب علينا في تحليل الأعمال الكلامية أن نحسب حساباً لحقيقة أنّ الجمل تنطق ضمن سياقات معينة وأن جزءاً من محصلة معنى نقش الكلام يُستمد من السياق الذي ينتج فيه، ويتضح هذا تماماً في إشارة التعابير المؤشرة التي يشملها السياق»<sup>(٣٩)</sup>، كالرؤية أو اللمس، أو الشم... عند سيبويه.

إلى جانب ذلك يمكن القول أيضاً إنّ المنطوقات سواء اتخذت شكل الخبر أو الإنشاء إنما تتحدّد دلالتها من حيث بقاؤها على هيئتها النمطية أو خروجها عنها بالسياق، فتستفاد منها معانٍ

(٣٨) نهاد موسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، دار البشير للنشر والتوزيع، الأردن، ط ٢ (١٩٨٧)، ص ٩٧.

(٣٩) جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ص ٢٠٠.

جديدة، «وذلك حيث نرى سيبويه يقف إلى تراكيب مخصوصة فيردّها إلى أنماط لغوية مقرّرة، وبقدر ما يكون عرض لها من الوجهة اللغوية الخالصة من حذف أو غيره...، ولكنه لا يقف عند ذلك بل يتّسع في تحليل التراكيب إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تُستعمل فيها وما يلبس هذا الاستعمال من حال المخاطب، وحال المتكلم، وموضوع الكلام... وقد هداه هذا الاتساع إلى رسم خطوط هادية في تعلم العربية تعلّمًا يضع كلّ تركيب موضعه ويعرف لكل مقال مقام»<sup>(٤٠)</sup>، فلكل لفظ موضعه في النظام والاستخدام، «وهكذا يبلغ سيبويه من اعتبار موقف الاستعمال أن يجعله فيصلاً في الحكم بصحة التراكيب النحوية وخطئها، ومن ذلك أننا نراه يقف في الجملة الواحدة فيحكم عليها في موقف من الاستعمال بأنّها خطأ، وفي موقف من الاستعمال آخر بأنّها صواب، وهذه الجملة لو اكتفى بالنظرة الشكلية الذاتية جملة نحوية جائزة، ولكن اللّغة عنده لم تكن تنفك عن ملابسات استعمالها ومقاييس اللّغة عنده تُستمدّ من معطيات النظام الداخليّ للبناء اللغويّ كما تستمدّ من معطيات السّياق الاجتماعيّ التي تكشف استعمال اللغويّ»<sup>(٤١)</sup>.

المفردات إلى الجمل<sup>(٤٢)</sup>، كان سيبويه يُقرّر قاعدةً عامّة مفادها «أنّ الكلام القابل للفهم والتأويل هو الكلام القابل للإعراب، وبالتّبع يكون الكلام القابل للإعراب هو الذي يقبل أن يُوضع في سياقه»<sup>(٤٣)</sup>.

### ٣. الاستلزام الحواريّ وقواعد مبدأ التّعاون:

أقرّ غرايس بأنّ كلّ حوار يقوم على مبدأ التّعاون بين المتكلم والمخاطب من أجل إنجاز عملية التّواصل دون تشويش هذا المبدأ بمقولاته الأربعة: الكمّ، الكيف، الملاءمة، الجهة، إذا حدث أيّ خرق للالتزام بها ينتج عنه ظاهرة الاستلزام الحواريّ<sup>(٤٤)</sup>، من هنا يمكن القول إنّ جهود العرب في مجال دراسة خروج الخبر إلى معانٍ أخرى تُقابل بالجهود التّداوليّة ولاسيّما جهود غرايس وقواعده التّخاطبية، فقد توّصل القدامى إلى مبدأ الكيف، فلفظ الخبر قد يقع مجازاً موقع الإنشاء لأسباب إمّا التّفاؤل أو لحمل المخاطب على تحصيل المطلوب، وذلك وفق مبدأ الفائدة.

إذن لم يغفل القدامى عن تمثيل المعاني الثواني (المعاني المُستلزمة) والمعاني الأصليّة من المطابقة بين العبارة اللغوية والمقام، فعملية الاتّصال

(٤٢) سعيد حسن بحيري، عناصر النّظرية النّحوية في كتاب سيبويه محاولة لإعادة التشكيل في ضوء الاتجاه المعجمي الوظيفي، ص ١٦٦.

(٤٣) إدريس مقبول، الأسس التّداوليّة والإبستمولوجيّة للنظر النّحويّ عند سيبويه، ص ٣١٦.

(٤٤) محمد حسن عبد العزيز، كتاب سيبويه مادته ومنهجه، ص ٢٣٧.

إنّ السّياق وقصد المتكلم يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالمستوى المنطوق حين يكون للأخيري في أحيان كثيرة دورٌ محوريّ في تحديد الدلالات من

(٤٠) نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ص ٩٧، ووردت «مقام» كذا والصواب مقاماً.

(٤١) المرجع نفسه، ص ١٠١.

تتطلبُ تَعَاوُنًا بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِ وَالسَّمَاعِ بَحَيْثُ تَتَوَافَرُ بَيْنَهُمَا مَعْرِفَةٌ مَشْتَرَكَةٌ بِمَوْضُوعِ الْخِطَابِ وَقَدْ عَبَّرَ عَنْهُ سَيِّبَوِيهِ تَعْبِيرًا وَاضِحًا، فَنَبَّهَ إِلَى مُرَاعَاةِ حَاجَةِ السَّمَاعِ فِيمَا يَلْقَى إِلَيْهِ مِنْ كَلَامٍ وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُخَاطَبِ مِنْ مَعَارِفَ مَشْتَرَكَةٍ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ لَهُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَغْنِي عَنْهُ اِكْتِفَاءً بِحَالِهِ، وَبَيْنَ هَذَا التَّنْبِيهِ وَمَبْدَأِ (الْكَمِّ) عِنْدَ غَرَايِسِ شَبَهٍ وَاضِحٍ مِنْ حَيْثُ الْقِيَمَةُ الْإِخْبَارِيَّةُ الَّتِي يُضْمِنُهَا الْمُتَكَلِّمُ خِطَابَهُ<sup>(٤٥)</sup>، يَقُولُ سَيِّبَوِيهِ: «إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الرَّجُلَ مُسْتَغْنٍ عَنِ لَفْظِكَ بِالْفِعْلِ، وَذَلِكَ قَوْلِكَ: (زَيْدًا، وَعَمْرًا وَ...)، وَذَلِكَ أَنَّكَ رَأَيْتَ رَجُلًا يَضْرِبُ أَوْ يَشْتُمُ أَوْ يَقْتُلُ، فَاكْتَفَيْتَ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ عَمَلِهِ أَنْ تَلْفِظَ لَهُ بِعَمَلِهِ، فَقُلْتَ: زَيْدًا، أَيْ: أَوْقَعَ عَمَلَكَ بِزَيْدٍ»<sup>(٤٦)</sup>.

وَمِنْ تَطْبِيقَاتِ هَذَا الْمَبْدَأِ «إِذَا قُلْتَ: (كَانَ رَجُلًا ذَاهِبًا)، فَلَيْسَ فِي هَذَا شَيْءٌ تَعَلَّمَهُ كَانَ جَهْلَهُ، وَلَوْ قُلْتَ: (كَانَ رَجُلٌ مِنْ آلِ فُلَانٍ فَارِسًا حَسَنًا)، لِأَنَّهُ قَدْ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ تَعَلَّمَهُ أَنْ ذَلِكَ فِي آلِ فُلَانٍ وَقَدْ يَجْهَلُهُ»<sup>(٤٧)</sup>، وَمِنْهُ «(مَرَرْتُ بِرَجُلَيْنِ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ) جَمَعْتَ الْأَسْمَاءَ وَفَرَّقْتَ النِّعَتَ، وَإِنْ شِئْتَ كَانَ الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ بَدَلًا كَأَنَّهُ أَجَابَ مَنْ قَالَ: بِأَيِّ ضَرْبٍ مَرَرْتَ؟ وَإِنْ شَاءَ رَفَعَ كَأَنَّهُ أَجَابَ مَنْ قَالَ: فَمَا هُمَا؟ فَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا وَإِنْ لَمْ يَلْفِظْ بِهِ الْمُخَاطَبُ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَجْرِي كَلَامُهُ عَلَى قَدْرِ مَسْأَلَتِكَ عِنْدَهُ لَوْ سَأَلْتَهُ»<sup>(٤٨)</sup>.

(٤٥) المَرْجِعُ نَفْسُهُ، ص ٢٣٩.

(٤٦) سَيِّبَوِيهِ، الْكِتَابُ، ج ١، ص ٢٥٣.

(٤٧) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ج ١، ص ٥٤.

(٤٨) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ج ١، ص ٤٣١.

لَقَدْ فَطِنَ سَيِّبَوِيهِ إِلَى ضَرُورَةِ أَنْ يَحْمَلَ الْكَلَامُ قِيَمَةَ إِخْبَارِيَّةٍ لِلْمُخَاطَبِ بِحَسَبِ احْتِيَاجِهِ وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ (فِيحْتَاجُ إِلَى أَنْ تَعَلَّمَهُ بِمَا كَانَ يَجْهَلُهُ) هِيَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ الَّتِي ذَكَرَهَا سَيِّبَوِيهِ مَفَادُهَا أَنَّ الْكَلَامَ مَبْنِيٌّ عَلَى تَحْقِيقِ الْفَائِدَةِ، وَإِلَّا فَمَا جَدْوَى الْكَلَامِ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يُرَاعِي مَقُولَةَ الْمَلَاءِمَةِ (الْأَسْلُوبِ) الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَاضِحًا مِنْ دُونِ لُبْسٍ أَوْ إِبْهَامٍ لِيَقَرَّرَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْكَلِمِيَّةِ، فَالْعَرَبُ كَرِهُوا أَنْ يَقْرَبُوا بَابَ لُبْسٍ، يَقُولُ سَيِّبَوِيهِ: «فَإِذَا قُلْتَ: (كَانَ زَيْدًا) فَقَدْ ابْتَدَأْتَ بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُ مِثْلَهُ عِنْدَكَ، فَإِنَّمَا يَنْتَظِرُ الْخَبَرَ، فَإِذَا قُلْتَ: (حَلِيمًا)، فَقَدْ أَعْلَمْتَهُ مِثْلَ مَا عَلِمْتَ فَإِذَا قُلْتَ: (كَانَ حَلِيمًا)، فَإِنَّمَا يَنْتَظِرُ أَنْ تَعَرَّفَهُ صَاحِبُ الصِّفَةِ، فَهُوَ مَبْدُوءٌ بِهِ الْفِعْلُ، وَأَنْ كَانَ مُؤَخَّرًا فِي الْلَفْظِ<sup>(٤٩)</sup>، هُنَا نَلْمُحُ قَاعِدَةَ الْعِلَاقَةِ الَّتِي تَفْتَرِضُ الْمُنَاسَبَةَ فِي الْكَلَامِ، فَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأخِيرُ يَكُونَانِ بِنَاءً عَلَى الْمَعَانِي الْمَشْتَرَكَةِ وَالْمَقَاصِدِ الَّتِي يَتَقَاسَمُهَا كُلُّ مِنَ السَّمَاعِ وَالْمُتَكَلِّمِ.

وَمِنْ الْأَمْثَلَةِ أَيْضًا، قَوْلُهُ: «وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: (بَعْتُ دَارِي ذِرَاعًا)، وَأَنْتَ تَرِيدُ بِدَرَاهِمٍ، فَيَرَى الْمُخَاطَبُ أَنَّ الدَّارَ كُلَّهَا ذِرَاعٌ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: (بَعْتُ شَائِي شَاءَ شَاةً)، وَأَنْتَ تَرِيدُ بِدَرَاهِمٍ، فَيَرَى الْمُخَاطَبُ أَنَّكَ بَعْتَهَا الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ عَلَى الْوَلَاءِ، وَلَا يَجُوزُ تَصَدِّقُ بِمَالِي دَرَاهِمًا، فَيَرَى الْمُخَاطَبُ أَنَّكَ تَصَدَّقْتَ بِدَرَاهِمٍ وَاحِدٍ»<sup>(٥٠)</sup>، فَلَا يَجُوزُ الْحَذْفُ لِأَنَّهُ يُوَدِّي إِلَى الْإِلْبَاسِ عَلَى الْمُخَاطَبِ، وَعَدَمُ تَبَيِّنِ

(٤٩) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ج ١، ص ٤٧-٤٨.

(٥٠) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ج ١، ص ٣٩٣.

مقصود المتكلم ومن ثم تشويش الاتصال وربما انقطاعه؛ لأن عدم الوضوح والغموض لا يسمحان بترجمة المعاني المراد التعبير عنها من قبل المتكلم، فهذه التراكيب ممتنعة لما فيها من لبس محتمل خلاف المقصود.

ومما يتعلّق بمقولة (الكيف) التي تفرض قول ما تعتقد أنه صادق يعبر سيبويه عنها بالصد، وهو (الكذب) ضمن حديثه عن المستقيم الكذب (حملت الجبل)، والمحال الكذب (سوف أشرب ماء البحر)، ومنه لا يُجيز سيبويه «قولك: (لقيته الدهر والأبد)، وأنت تريد يوماً منه، ولا (لقيته الليل) وأنت تريد لقاءه في ساعة دون الساعات»<sup>(٥١)</sup> إلا على معنى التكثر.

إنّ اعتناء سيبويه بقاعدتي (الكم، والكيف) من منطلق مبدأ التفاهم الذي يرتبط بمبدأ آخر هو تحقيق الفائدة الذي سمح بالحذف ما دامت المعرفة مشتركة بين السامع والمتكلم، يقول المسدي في هذا المجال: «لا يمكن للباحث أن يغفل عن نباهة شيخ النحو العربي في هذا المقام، فقد حاول صاحب الكتاب تفسير المظاهر الطارئة على التراكيب النحوية في اللغة، ولما سعى إلى تحليلها انتبه رأساً إلى ما لجهاز التحاور من سيطرة على نواميس الحدث التخاطبي حتى إنّ مبدأ التفاهم قد غدا بمنزلة المعيار الضابط لطاقة الاختزال أو التصريح في الكلام، فيكون له التأثير نفسه في تحديد أبعاد الشمول والاستنتاجات عند تقدير

(٥١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٧.

الظاهرة اللغوية كلياً»<sup>(٥٢)</sup>.

وهكذا «توصل سيبويه إلى استنباط قانون التناسب العكسي بين طاقة التصريح في الكلام وعلم السامع بضمون الرسالة الدلالية، وبموجبه تكون الطاقة الاختزالية ممكنة بقدر ما يكون السامع مستطلعاً مضمونها الخبري، وبالاستتباع المنطقي نفسه يتعدّر التعويل على الطاقة الإيحائية في اللغة إن لم يتعين الحد الأدنى من القرائن المفضية إلى إدراك المختزل»، وعلى سبيل المثال من القرائن المفضية (رؤية العين...). إذن ما يخول الاتساع أو الإيجاز هو المعرفة المشتركة، وهي مبدأ التعاون، «إن الغالب على المتكلم ألا يذكر في كلامه إلا ما كان يعلم أنّ المستمع يحتاج إلى معرفته ليتبين الفائدة منه، معتمداً في ذلك على قدرة المستمع على استحضار المحذوف إما لوضوحه أو لقربه أو لشهرته فتكون عناية المتكلم بالكلام على حسب حال مخاطب المستمع من الإدراك وعلى قدر مشاركته له في بعض الفوائد والمعلومات، فيضمّر ما علمه المخاطب ويظهر ما جهله وغاب عنه»<sup>(٥٣)</sup>.

وعلى الرغم من وجود معرفة مشتركة، فلا يخلو الكلام من لبس إنجازي يؤدي إلى خرق قاعدة الجهة مثل قول القائل: (ما أتى رجل)، التي

(٥٢) عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، ط ٢ (١٩٨٦) ص ٣٣٢.

(٥٣) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص ١١٢. يُنظر أيضاً: إدريس مقبول، الأسس التداولية والإبستمولوجية للنظر النحوي عند سيبويه، ص ٣٣٧.

تحتمل (العدد) معنى الكثرة، الصفة معنى النقض (الضعفاء)، النفي العام، الجنس معنى التعيين<sup>(٥٤)</sup> وبهذا نسجّل وصفًا تداوليًا لسيورتي الإنتاج والتأويل بين كفايتين، كفاية الإرسال، وكفاية الاستقبال<sup>(٥٥)</sup> وفق قواعد مبدأ التعاون.

## خاتمة:

ويمكن إيجازُ أهمّ الملاحظاتِ والنتائج فيما يأتي:

١. إنَّ إبداعَ سيبويّيه في بيانِ صورِ العدولِ والاتساعِ في ما توفّره اللُّغة من إمكانات، إنما يدلُّ على عقلية عبقرية؛ إذ جمع بين الصّحة والخطأ، والحسن والقبح، والاستقامة والإحالة باحتكامه إلى ما تكلمت به العربُ وضرورة أن نجري الكلام كما أجرته، فنحو سيبويّيه قائمٌ على قاعدة كبرى هي قاعدة الاستعمال (هكذا قالت العربُ)، وهو بذلك قد سبقَ زمانه تأسيسًا للتداولية المعروفة اليومَ بـ«دراسة اللُّغة في الاستعمال».

٢. أعطى سيبويّيه بُعدًا آخرًا للعلامة الإعرابية، فلا يتمّ معناها إلا في ضوء تلك الأبعاد النفسية والاجتماعية، والعقلية التي اتخذ منها أدوات إجرائية لتحليل النصوص وتفسير القواعد، فلا تصبح العلامة مجرد قرينة لفظية بل قرينة تداولية.

٣. أكد سيبويّيه على عدم إمكانية فصل التراكيب

(٥٤) يُنظر: سيبويّيه، الكتاب، ج ١، ص ٥٥.

(٥٥) محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، ص ٥٢.

عن محيطها الخارجي والظروف الملائمة، ذلك أنّ لها التأثير في الطابع الاختياري للغة، وهي التي تسمح بالتوسّع فيها، وهذان مما يضمن المرونة في اللُّغة وتأكيد مبدأ أصيل هو مبدأ الحركة والتبدل والتجدد فيها.

٤. يحرص سيبويّيه دائمًا على تفسير الظواهر اللغوية من منطلق واقعها الراهن الكامن في الاستعمال ومراعاة ما يحيط بالمتكلم والمخاطب من ملابس وأحوال، وهذا ينفي عن النحو تلك المعيارية المستندة إلى الافتراضات والتخمينات، ويثبت الأصالة والسبق.

٥. يتمّ الوصول إلى المعنى الصحيح باكتمال الوصل بين هذه العلاقات، علاقة إنشاء بين النصّ والمتكلم، وعلاقة فهم بين النصّ والمخاطب، وعلاقة سياق مناسب.

٦. إنَّ اعتناء سيبويّيه بقاعدتي الكم والكيف من منطلق مبدأ التفاهم الذي يرتبط بمبدأ آخر هو تحقيق الفائدة، كما يتّصل أيضًا بالمعرفة المشتركة بين السامع والمتكلم.

٧. فطن سيبويّيه إلى ضرورة أن يحمل الكلام قيمة إخبارية للمخاطب بحسب احتياجه، فقاعدة الاحتياج هي من جوامع الكلم التي ذكرها سيبويّيه التي مفادها أنّ الكلام مبني على تحقيق الفائدة، وإلا فما جدوى الكلام.

٨. لقد تناول سيبويّيه الأساليب الإنشائية الطليبية وغير الطليبية (الفعل الكلامي) مما يدلّ دلالة واضحة على تعالق النحو والبلاغة تعالقًا تداوليًا مبنيًا على ثنائية القاعدة والاستعمال.

٩. «الكتاب» هو نموذج لبناء نظرية لسانية

عربيّة خالصة، لذا يجبُ استخراجُ مكنوناته بإعادةِ قراءتهِ قراءةً لسانيةً، وذلك بتشجيعِ طلبةِ الماجستير والدكتوراه على خوضِ غمارِ (لسانيّاتِ سيبويّه) في موضوعاتِ بحوثهم.

## المصادر والمراجع:

– أحمد سعد محمد، الأصول البلاغيّة في كتابِ سيبويّه وأثرها في الدرس البلاغيّ، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر ط ٢ (٢٠٠٩).

– إدريس مقبول، الأسس والابستمولوجيّة والتداوليّة للنظر النحويّ عند سيبويّه، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن ط ١ (٢٠٠٦).

– إدريس مقبول، الأفق التداوليّ نظريّة المعنى والسّياق في الممارسة التراثية العربيّة، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن (٢٠١١).

– إدريس مقبول، البعد التداوليّ عند سيبويّه، عالم الفكر، دمشق، سوريا، مج ٣٣، العدد ١، (سبتمبر ٢٠٠٤).

– جون لاينز، اللّغة والمعنى والسّياق، تر: عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، (١٩٨٧).

– سعيد حسن بحيري، عناصر النّظرية النّحويّة في كتاب سيبويّه محاولة لإعادة التشكيل في ضوء الاتجاه المعجميّ الوظيفيّ، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط ١ (١٩٨٩).

– سيبويّه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط ٣ (٢٠٠٦).

– طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي،

المركز الثقافي العربيّ، ط ١ (١٩٩٨).

– عبد السلام المسدي، التفكير اللسانيّ في الحضارة العربيّة، الدار العربيّة للكتاب، طرابلس، ليبيا، ط ٢ (١٩٨٦).

– فاضل صالح السامرائي، معاني النّحو، شركة العاتك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط ٢ (٢٠٠٣).

– فيليب بلانشيه، التّدأوليّة من أوستين إلى فوغمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا ط ١ (٢٠٠٧).

– كادة ليل، المكون التّدأوليّ في النّظرية اللسانية العربيّة ظاهرة الاستلزام التّخاطبيّ أنموذجًا، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة، الجزائر.

– مازن عبد الرسول الزيدي، نّحو سيبويّه في كتب النّحاة، دراسة تحقيقيّة وتقويم، أطروحة دكتوراه، الجامعة المستنصرية (٢٠٠٦).

– محمد حسن عبد العزيز، كتاب سيبويّه مادته ومنهجه، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط ١ (٢٠١١).

– محمد نظيف، التّواصل وخصائص التفاعل الحواريّ، دراسة تطبيقيّة في اللسانيّات التّدأوليّة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط (٢٠١٠).

– نهاد موسى، نظريّة النّحو العربيّ في ضوء مناهج النّظر اللغويّ الحديث، دار البشير للنشر والتوزيع، الأردن، ط ٢ (١٩٨٧).

## الدوريات

هيثم محمد مصطفى، القصديّة الإنجازيّة في مضمون الخطاب النّحويّ في كتاب سيبويّه، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، مج ١١، ع: ٣.